

مظاهر رعاية البيئة الطبيعية في القرآن بين ثنائية الحفظ الوجودي والعدمي

Aspects of the natural environment in the Qur'an between the dualism of
existential preservation and nihilism

نبيل صابري¹

¹ كلية العلوم الإسلامية خروبة جامعة الجزائر 1 (الجزائر)، sabrinabil02@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/05/22

تاريخ القبول: 2021/04/04

تاريخ النشر: جوان/2021

الملخص

كشف البحث في ثناياه عن موضوع من مواضيع علوم القرآن الكونية، وهو حقيقة الحضور القرآني لمظاهر الرعاية البيئية ومصطلحاتها في القرآن، وكيف كان حديثه عنها، من جهة الحفظ الوجودي والمتمثل في تتميتها بالقيم الكسبية والوهمية، ومن جهة الحفظ العدمي والمتمثل في حمايتها من كل تلوث أو فساد يلحق بها بذكر التهديدات والآثار الناجمة، ولقد توصل التتبع باستخدام منهجي التحليل والاستنباط إلى مكانة البيئة في المنظور القرآني، ومدى دقته في العناية بكل عناصرها، سواء النباتية، أو الحيوانية، أو الكونية، أو الجمادية، حيث أرشد في كثير من آياته إلى احترام قوانينها، وعدم الاعتداء على مقوماتها بالإفساد والإسراف، وبين أن من آثار تجاوز سننها إحلال الأزمات والكوارث واستحقاق الجزاءات الجنائية والعقوبات الأخروية.

الكلمات المفتاحية: البيئة، التنمية، الرعاية، القرآن، التلوث.

Abstract

The research revealed in its folds a topic from the cosmic sciences of the Qur'an, which is the reality of the Qur'an presence of environmental care aspects and its terminology in the Qur'an, and how it was talked about, from the side of existential preservation, which is represented in its development by the gainful and gifted values, and from the nihilistic preservation aspect of protecting it from all pollution Or corruption attached to it by mentioning the threats and the resulting effects, and using the methodology of analysis and deduction has reached the position of the environment in the Qur'an perspective, and its accuracy in taking care of all its elements, whether plant, animal, cosmic, or materialistic, as he guided in many of his verses to respect Its laws, not to violate its constituents by corruption and extravagance, and indicated that the effects of exceeding its rules are the creation of crises and disasters and the entitlement of criminal sanctions and hereafter punishments.

KEY WORDS: Environment, Development, Care, Qur'an, Pollution.

المقدمة

عرف عالمنا في عقود الألفية اهتماما متزايدا بشأن البيئة المحيطة بالإنسان، وذلك من أصغر موجود فيها إلى أعلاه، وانبثق من النظر المستدام علوم دقيقة وكتب تخصصية ومقالات بحثية وملتقيات فكرية، وساهم كل فرد بحسب زاوية نظره ودائرته التي ينتمي لها وبمختلف اللغات.

وحيث إن أرفع العلوم قدرا وأجلها وزنا ما تعلق بالقرآن العظيم؛ لانطوائه على كلام الله الخالد، ارتأيت أن أساهم بهذه المشاركة معتمدا على المنهج التحليلي الاستنباطي لآياته المتعلقة برعاية البيئة الطبيعية، وذلك بين جهتي الوجود والعدم، أي؛ من الناحية الترغيبية والترهيبية، حتى تصل رؤاه البيئة إلى مختلف الجهات البحثية فيستثمرون توجيهاته، كما أبرز من جهة أخرى إعجازه العلمي.

خاصة وقد كان حديث القرآن عنها سابقا، ومتكاملا، وصالحا لكل زمان ومكان، بل إن تدابيره المضمّنة في ثناياه لتعدّ من تفرّداته، ولا أدل على هذا من العلاقة المنظمة بين الإنسان ومحيطه في إطار البعد التعبدي والحقل الإيماني، وهذا ما سيحاول البحث تقصّيه وكشفه في بعض جوانبه؛ إذ يجمع بين المساحة القرآنية الخاصة، والمساحة العلمية المشاعة.

ولعل أهم ما يثار من إشكالات؛ هو مدى استيعاب القرآن لوسائل الرعاية البيئية، ومقدرته على تجاوز الجوائح المفتكة بالكون، وكيفية معالجته ونظراته للأحداث؟ علما أن ذلك يستدعي طول تدبّر للخطاب القرآني، لأن غالب ما يتم استخلاصه إنما هو من قبيل الإيحاءات القرآنية والإشارات المستنبطة من مقاصده، وليس من ذلك في تراث المفسرين مادة أهلة، كما أن الدراسة حيث تقيدت بالبيئة الطبيعية فإن هذا لا يعني قصرها؛ لأنها تشمل الكون كله بما فيه من أرض وماء وهواء وجميع ما يحيا فيه وعليه عدا العلاقة الإنسانية البيئية، وقد كانت خطة البحث كالاتي:

مدخل تمهيدي: تضمّن فرعين: تعريف البيئة، وأقسامها وعناصرها الطبيعية.

المطلب الأول: رعاية البيئة في القرآن من جهة الحفظ الوجودي: وذلك من خلال فرعين: القيم الوهية، والقيم الكسبية.

المطلب الثاني: رعاية البيئة في القرآن من جهة الحفظ العدمي: وذلك من خلال فرعين أيضا: المنهيات المحذرة من الإضرار بالبيئة، والآثار المترتبة على الإساءة إلى البيئة.

مدخل تمهيدي

لضبط مفردة البيئة بدقة، لا بد من بسط الكلام حول تحديدها أولا من حيث اللغة والاصطلاح والدلالة القرآنية، ثم التعرّيج على أقسامها وعناصرها ثانيا.

الفرع الأول: تعريف البيئة

1/ البيئة في اللغة: يرجع أصل الكلمة إلى الجذر "بؤأ"، جاء في معجم مقاييس اللغة: "الْبَاءُ وَالْوَأُ وَالْهَمْزَةُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا الرُّجُوعُ إِلَى الشَّيْءِ، وَالْآخَرُ تَسَاوِي الشَّيْئَيْنِ، وَمِنْ الْأَوَّلِ قَوْلُهُمْ: بَاءَ فُلَانٍ بِذَنْبِهِ، كَأَنَّهُ عَادَ

إِلَى مَبَاعَتِهِ مُحْتَمَلًا لِدَنْبِهِ، وَقَدْ بُذِتْ بِالذَّنْبِ، وَبَاعَتْ الْيَهُودُ بِغَضَبِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنَ الثَّانِي قَوْلُهُمْ: هُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ بَوَاءٌ أَيْ سَوَاءٌ وَنُظَرَاءُ¹.

والمَبَاعَةُ؛ هِيَ الْمَوْضِعُ الَّذِي تَبَوَّءَ إِلَيْهِ الْإِبِلُ هَذَا أَصْلُهَا، ثُمَّ جُعِلَتْ عِبَارَةً عَنِ الْمَنْزِلِ مُطْلَقًا، ثُمَّ كُنِيَ بِهَا عَنِ النِّكَاحِ فِي قَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «عَلَيْكُمْ بِالْبَاءَةِ فَإِنَّهُ أَعْضٌ لِلْبَصْرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ»² إِمَّا لِأَنَّهُ يَكُونُ فِي الْبَاءَةِ غَالِبًا أَوْ لِأَنَّ الرَّجُلَ يَتَبَوَّأُ مِنْ أَهْلِهِ حِينَئِذٍ أَيْ يَتِمَكَّنُ كَمَا يَتَبَوَّأُ مِنْ دَارِهِ، وَيُقَالُ بَوَاءً لَهُ مَنْزِلًا وَبَوَاءَهُ مَنْزِلًا أَيْ هَيَّأَهُ لَهُ³، وَأَبَاتُ بِالْمَكَانِ: أَقَمْتُ بِهِ، وَبَوَاتُكَ بَيْتًا: اتَّخَذْتُ لَكَ بَيْتًا⁴، وَهُوَ بَبِيئَةٌ سَوْءٌ؛ أَيْ: بِحَالَةٍ سَوْءٍ⁵.

وعموماً؛ الْبَيْئَةُ وَالْبَاءَةُ وَالْمَبَاعَةُ؛ الْمَنْزِلُ⁶، أَيْ؛ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُتَبَوَّأُ فِيهِ، وَيَرْجِعُ إِلَيْهِ، سَوَاءٌ كَانَ لِلْإِنْسَانِ أَوْ الْحَيَوَانِ، وَلِذَا جَعَلَهُمُ ابْنُ سَيِّدِهِ فِي ضَمَنِ أَسْمَاءِ عَامَةِ الْمَنَازِلِ وَالْأَوْطَانِ⁷.

2/ الْبَيْئَةُ فِي الدَّلَالَةِ الْقُرْآنِيَّةِ: لَا بَدَّ مِنَ الْإِشَارَةِ لِحُضُورِ أَوْ غِيَابِ مَفْرَدَةِ الْبَيْئَةِ فِي الْقُرْآنِ؛ كَوْنِ الْمَقَالِ مُتَعَلِّقًا بِالنَّظَرِ إِلَيْهَا مِنْ زَاوِيَةِ الرُّؤْيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَلِإِدْرَاكِ الرِّبْطِ بِهَا حِينَ الْاِسْتِدْلَالِ.

ابتداءً لم ترد المفردة وفق صياغتها، وإنما وردت بصيغ اشتقاقية أخرى⁸، بلغ مجموعها مكررة سبعة عشر مرة، وهي: بَاءٌ، بَاءُوا، تَبَوَّءَ، بَوَّأَكُمْ، بَوَّأْنَا، تَبَوَّؤُا، لَنَبَوِّئَنَّهُمْ، تَبَوَّعُوا، تَتَبَوَّأُ، يَتَبَوَّأُ، تَبَوَّءَا، مُبَوَّأً.

وهي كما تبدو من سياقاتها تحمل معاني كثيرة؛ إلا أن المعنى الغالب لها يدور حول اتخاذ حيز مناسب للاستقرار، يُرْجَعُ إِلَيْهِ وَيُطْمَئِنُّ فِيهِ، وَهُوَ الْمَوَافِقُ لِأَحَدِ مَعَانِيهَا اللَّغَوِيَّةِ الْمُشْتَهَرَةِ، وَقَدْ جَاءَتْ مَعْبَرَةً عَنِ الْأَرْضِ وَالْجَنَّةِ وَالْدُنْيَا وَالْبُيُوتِ وَمَكَانِ الْبَيْتِ وَمَبُوءٍ صَدَقَ وَمَقَاعِدُ لِلْقِتَالِ وَالْدَارِ وَالْإِيمَانِ.

والملاحظ في السر التعبيري أن كل المهيئات هي مباوئُ بهية، ومنازل سوية، فلم ترد في معنى مسكن السوء أو الأرض الخبيثة، ومن هنا ندرك جمال الكلمة وحسن مواردها في استعمال القرآن، وكأنها تحمل إشارة خفية لعموم البشر بالواجب الحضاري إزاء ثقل أمانتها.

3/ الْبَيْئَةُ فِي الْاِصْطِلَاحِ الْعِلْمِيِّ: وَرَدَتْ عِدَّةُ تَعَارِيفَ مُخْتَلِفَةً لِتَحْدِيدِ الْمَفْهُومِ الْجَامِعِ لِمِصْطَلَحِ الْبَيْئَةِ، وَسَبَبُ اخْتِلَافِهَا إِنَّمَا هُوَ رَاجِعٌ بِالْأَسَاسِ لاعتبار كل العناصر البيئية بما فيها النشاط البشري أو عدم اعتباره، وَهُوَ الْفَارَقُ الْجَوْهَرِيُّ فِي التَّفَاوُتِ، وَمِنْ تِلْكَ التَّعَارِيفِ:

أ- رصيد الموارد المادية والاجتماعية المتاحة في وقت ومكان ما لإشباع حاجات الفرد وتطلعاته⁹، وَهُوَ تَعْرِيفُ الْأُمَمِ الْمُتَحِدَةِ فِي مُؤْتَمَرِ اسْتِكْهُولَمِ سَنَةِ 1972م.

ب- المحيط المادي الذي يعيش فيه الإنسان بما يشمل من ماء وهواء وفضاء وتربة وكائنات حية ومنشآت أقامها لإشباع حاجاته¹⁰.

ج- الإطار الذي يعيش فيه الإنسان وحصل منه على مقومات حياته من غذاء وكساء ودواء ومأوى ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني البشر¹¹.

د- كل ما يحيط بالإنسان سواء كان من صنع الطبيعة أو من صنع الإنسان¹².

هـ- مكان تتوافر فيه العوامل المناسبة لمعيشة كائن حيٍّ أو مجموعة كائنات حية خاصّة، كالبيئة الاجتماعية، والطبيعية، والجغرافية، أما علم البيئة -في علم البيئة والجيولوجيا-: فهو علم يدرس علاقة البيئة بالأحياء، فيبحث في علائق الكائنات الحيّة ببيئتها الطبيعيّة، وخصوصاً تأثير العوامل الطبيعيّة والإقليميّة فيها¹³.

وبعد النظر في التعاريف الاصطلاحية؛ يظهر أن قاعدتها المعنوية توافق المفهوم اللغوي والقرآني الغالب الذي يدل على موضع القرار، غير أن معانيها تطورت، حيث "توسعت دلالتها حديثاً فأصبحت تدل على المكان وما يُحيط به من ظروف طبيعية، وذلك على سبيل المجاز"¹⁴، كما انضوى تحتها ما يعرف بالبيئة الاجتماعية، والبيئة السياسية¹⁵، والبيئة الاقتصادية، والبيئة الثقافية، إلى غيرها من الأنواع. وقد اجتهد محمد المبارك بوضع تعريف للبيئة وفق المنظور الإسلامي حين قال: "ما خلقه الله تعالى في الأرض من عناصر ومكونات وأحياء هيأها لحياة الناس وقضاء حاجاته"¹⁶، ولست أراه وجيهاً، بل هو من التكلف؛ لأن المصطلحات العلمية هي قدر مشترك بين جميع الناس على اختلاف مشاربهم، وليس من الحكمة إقحام المعاني العقديّة في حدودها لأسلمتها وتأصيلها شرعياً، كإثبات أنها من خلق الله ومسخرة للإنسان، نعم يمكن قراءتها ومقارنتها، ولكن ليس لتحديد محترزات رسمها ما دامت تدل على قضية علمية بحثية لا تمت بصلة للجانب الديني.

الفرع الثاني: أقسام البيئة وعناصرها الطبيعية

بعد معرفة المقصود بالبيئة من حيث اللغة والقرآن والاصطلاح، يجدر أن تُلمح إلى أقسام البيئة وعناصرها الطبيعية إجمالاً، حتى تكون صورة جليّة في ذهن القارئ ثمكّنه من التصور الجيد للموضوع.

1/ أقسام البيئة: يقسم المختصون البيئة إلى قسمين كبيرين؛ هما:

أ/ البيئة الطبيعية: وهي كل ما يحيط بالإنسان من مكونات طبيعية حية وغير حية.

ب/ البيئة البشرية: وهي كل ما تنطوي عليه نفس الإنسان من أحاسيس وخواطر وعقائد وما يشتمل عليه عقله من أفكار وثقافات لا مادية، وكذا كل ما شيده واستطاع أن يصنعه أو يستحدثه من ماديّات، أي رصيد الموارد المادية والاجتماعية.

وبعضهم يزيد في التقسيم، وهي في الحقيقة راجعة إلى ما ذكره كفروع لها، فمن فروع البيئة الطبيعية؛ البيئة المناخية والصحراوية والاستوائية والبحرية والجبلية والساحلية والمحيطية، ومن فروع البيئة البشرية؛ البيئة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والصناعية والالكترونية¹⁷، أي علاقة الإنسان بالبيئة، وإن كان المعنى الأول هو الأكثر رواجاً عند الإطلاق، وعليه كان العمل، ولذا اقتصرْتُ عليها في تحديد العناصر.

2/ عناصر البيئة الطبيعية: وهو ما يعرف بمكوناتها المشكّلة لها، وقد اتخذ تحديدها حيثيات مختلفة، أبرزها تقسيمها إلى:

أ/ عناصر حية: وتشمل كل الكائنات التي من خصائصها النمو والحركة والإحساس، وتتفرع إلى: 1 عناصر الإنتاج: وتتمثل في النباتات بكل أنواعها، 2 عناصر الاستهلاك: وتتكون من الحيوانات بأنواعها المختلفة، 3 عناصر التحليل: وتشمل كل ما يتسبب في تحلل أو تلف مكونات البيئة الطبيعية المحيطة بها مثل البكتيريا والفطريات وبعض أنواع الحشرات.

ب/ عناصر غير حية: وتشمل الماء والهواء والشمس والأرض وسائر الموجودات الخالية من مظاهر الحياة كالنمو والتكاثر¹⁸.

وقبل أن أختتم الفرع أود أن أشير إلى أن القرآن الكريم تحدث عن البيئة بقسميها وأصول عناصرها في كثير من جوانبها، وفي ما يأتي تفصيل ذلك من الناحية الرعائية.

المطلب الأول: رعاية البيئة في القرآن من جهة الحفظ الوجودي

يسعى هذا المطلب للتفصيل على أبرز مظاهر الرعاية البيئية من جهة وجودها، وحتى يتسلسل استيعابها وتنظيمها سيتم عرضها من زاويتين؛ زاوية القيم الوهبية، وزاوية القيم الكسبية. وقد كان اختيار لفظة الرعاية¹⁹ كونها الأنسب من مصطلح الحماية والحفاظ المتداولين في الساحة اليوم؛ لأن الرعاية هي صيانة شاملة تجمع بين حفظ الأسباب الموجبة ونفي الأسباب السالبة، ومنه؛ رعاية اليتيم والأطفال والمسكين وذوي الاحتياجات الخاصة، وإن كان لفظ الحماية أصح من الحفاظ في مجال البيئة، لأنه يكون لما لا يحرز ويحفظ كالأرض، بخلاف لفظ الحفظ الذي يكون لما يحفظ كالدرهم والمتاع²⁰.

الفرع الأول: القيم الوهبية

أي الأسس القرآنية الداعية لتحقيق تكامل بيئي من خلال استثمار العطاءات الممنوحة والنظر فيها، وهي ذات نزعة ترغيبية تحفيزية لعموم البشر، ترشدهم للتدبر وتحثهم على العمل، ومن جملتها:

1/ التسخير: من المقررات القرآنية أن الكون كله مسخر للإنسان، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (لقمان: 20)، وإذا نظر إلى البيئة من ناحية التسخير توجب على العقلاء حفظها بعلاقة توافقية تجمعها؛ أخذاً وعطاءً.

على أن حفظ ما طوّعه الله ينبغي أن لا يدعوه لأن يضع نفسه في موضع صراع معها، أو أن يجره إلى التصرف السلطوي القاهر على عناصر البيئة، فالأرض وضعها للأنام، وهي مشتركة بين جميع الأجيال والخلائق، وإن تَوَهَّم أن في بعض ظواهرها شرور، لأن في بواطنها منافع، قال الراغب الأصفهاني: "وذكروا في الحشرات كالديدان والنمل والحية والعقرب والبق والبراغيث والذباب والضفادع والسرّاطين أنها خلقت من عفونات لو بقيت في الماء والأرض والهواء لكانت أسباباً للوباء، فخلقها الله تعالى منها وجعل غذاءها تلك العفونات التي منها خلقت ليقول بذلك أسباب الوباء مع ما فيها من المنافع في جملة الأدوية"²¹، ومنه معدن الحديد الذي قال تعالى فيه: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعُ

لِلنَّاسِ { (الحديد:25)، حيث فرق بين البأس والمنفعة، ولكن عند النظر يظهر أن ذلك البأس ما جعل إلا لمنافع أخرى.

وهكذا سائر النباتات والحيوانات، إنما خلقت وسخرت لتكون عوناً له، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً} (البقرة:29)، ومنه قال الرازي: " ثم إنه تعالى إنما خلق النبات والحيوان في هذا العالم ليكون غذاء ودواء للإنسان بحسب جسده " ²²، وعليه فواجبه أن يحافظ عليها ويرعاها مقابل تمتعه بخيراتها، وكل حق إنما هو مكفول بواجب إزاءه.

2/ الأمانة: انطلاقاً من عقيدة المسلم المستلزمة لرعاية الأمانة المنوطة به دون سائر الموجودات، كما قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} (الأحزاب:72)، فإن ثقل المسؤولية توجب عليه فروضاً زائدة تؤطر سلوكه وتصوغ تصرفاته، منها؛ المحافظة على المحيط البيئي.

3/ الاستخلاف: من هدايات القرآن ومقاصده الوجودية الكبرى تحقيق مبدأ الخلافة، ولضمان استمراريته يشترط إنقاذ الكون الذي يحيا فيه الناس ليتواصل النسل وتتعاقد الأجيال، فضرورة وجوده متوقفة على وجوده، ومصلحه قائمة على تمام قيامه، وفي إشارة القرآن بإنجاز وعد الاستخلاف المترتب على العمل الصالح في قوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} (النور:55) دلالة على انضواء العناية البيئية في العمل الصالح المأمور بإفاده، كون الصلاحية عامة وشاملة.

كما أن من إحياءات الاستخلاف؛ التسليم بملكية الله التي لا تزول وضرورة تنميتها، فتوجه الخليفة إلى الوكالة والحفاظية وليس إلى المالكية المطلقة ما دام أنه مستخلف فقط، كما جاء في قوله تعالى: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} (المائدة:18)، وهذه من شأنها أن تقيّد عبثيته وترشّد استخفافيه.

4/ الاستعمار: من الأساسيات الوجودية التي بثها القرآن؛ مبدأ الاستعمار، وذلك في قوله تعالى: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} (هود:61)، أي جعلكم عمارها، وجعل الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع، وفي ذلك حث على العمل والزراعة وتشديد المصانع وتوسيع العمران، وليس كما ينهج المستدمر -المتصف بالمستعمر ظلماً وعدواناً- في هدم كل المسرح البيئي لمحيط المستعمرات بما فيها ثروتها النباتية والحيوانية والكونية.

والهداية المستنبطة من إسناد الاستعمار لله أن الإنسان مهما بلغ من تعمير البيئة فعليه أن يستحضر خصلة الاعتراف ويدفع عنه خبيثة الجحود والاستكبار، لأن كل ما عمرنا به أرضنا فإله منشئه وملهمه، ولا ينبغي أن تعارض هذه السنة الكونية بالتخلي والتبطل المطلق، بل السعي لإقامتها مطلب حضاري أيضاً.

5/ الإتقان والالتزان والحسبان: ما أكثر الآيات الدالة على سير النظام العالمي وفق موازين دقيقة، منها قوله تعالى: { صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ } (النمل:88)، وقوله: { الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ } (السجدة:7)، وقوله: { وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ } (الحجر:19)، وقوله: { قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } (الطلاق:3)، والملاحظ أنها متوافقة في عموميتها لكل شيء، ولذا جاء في المحرر: "أنبتنا؛ يعم جميع أنواع الحيوان وأنواع النبات والمعادن"²³، فكل شيء متقن بحسن، موزون بقدر، لا مجال للعشوائية فيه، ويتأمل مثل تلك النصوص دفع للإنسان العاقل أن يحترم قاعدتها، ويسهم في توازنها، لأن أي خرق في تسلسلها يحدث خللا في وظيفتها ونسبها المقدرة بإحكام، ويعرض مصير الكون إلى الآفات والكوارث.

ومما يستحضر في مقام التوازن والحسبان ويجدر التنبيه إليه باختصار، أن علماء البيئة يكاد يجمعون في كتبهم على أن الانفجار السكاني من مفسدات البيئة، وسبب من أسباب نقص الموارد وشح الغذاء ومتطلبات الحياة، لأن في مبادئهم الإحصائية تضاعف كبير يشهده العالم اليوم وسيشده في غضون الأعوام القادمة مقارنة بما مضى من القرون، والحقيقة أن استنتاجهم مجرد تخوف أو مؤامرة لتحديد نسل المسلمين، لأن الله سبحانه وتعالى قد أحكم كل شيء وقدره بإتقان، بل قسم المعاش وحدد الأرزاق، فقال: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} (الزخرف:32)، وقال: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} (هود:6)، نعم سوء استخدام الأدوات وهمجية استغلال الخيرات هو السبب في نضوبها.

6/ التكریم العقلي: كرم الله بني آدم بالعقل، وفتح عليه بالعلم، وما ذاك إلا ليكون متيسر الحال، موسر القلب في ملكوت الله، حسن المعرفة بمهمته ومهمة كل عنصر في الكون، وإن التأمل لمحيط العيش والتفكر في أسرار المخلوقات ليقود المتدبر زيادة على التبصر بمعجزة الصانع وروعة الفاطر إلى تحقيق ازدهار حياتها وزخر مقوماتها، وصيانة زينتها ورعاية إنتاجها.

ومن الآيات المرغبة في النظر والتفكر وهي مليئة في كتاب الله قوله سبحانه وتعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (البقرة:164)، وقوله: {قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} (يونس:101)، وتجتمع الآيات المتلوة بأنها تحمل في طياتها إشارات ظاهرة للاعتناء بالآيات المشاهدة.

7/ عبادة البيئة وشعورها: إذا تيقن العبد بأن البيئة المحاطة به لها شعور وحس، تعبد الله مثله وتسبحه، فإن ذلك يولد عنده علاقة تعاطفية أكثر، وينمي لديه ثقافة حسن الجوار وسلامة التعايش، ولئن جرى تسمية بعض مكوناتها في التقسيم العلمي بغير الحية، فهو تقريب صوري، ومن أمثلة ما يستشهد لهذا

قوله سبحانه وتعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} (الإسراء:44)، وقوله: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ} (الأنعام:38).

فكل ما نراه وما لا نراه من مخلوقات جامدة أو متحركة إنما هي مسبحات لربها، تخشع وتصلي وتبكي، ومن أدرك حياتها احترام بقاءها.

الفرع الثاني: القيم الكسبية

أي الركائز القرآنية المتعلقة بكسب البشر واجتهادهم تجاه عناصر البيئة، حيث تحت على حفظها وجودها سواء في اغتذائها أو نموها أو توليدها أو جمالها، وباختصار في كل وظائفها المميزة، ويمكن تلخيصها في الحديث عن أبرز الأصناف المحيطة بالإنسان، وهي كالآتي:

1/ العناية بالنبات: ما أكثر حديث القرآن عن النباتات بأسمائها وأصنافها وتطورات حياتها، من زرعها وإنباتها وإثمارها وحرثها وقطفها، حتى عن علاقاتها بالإنسان وغيره من المظاهر الكونية المتظافرة معها كالرياح اللوايح والأرض الطيبة وأنواع المياه المنزلة كالغيث والوابل.

ويكفي أن أدلل على فضل تنميتها بالحث على الفلاحة في قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلٍ مِثْلُ حَبَّةٍ} (البقرة:261)، حيث يقول القرطبي مفسراً: "في هذه الآية دليل على أن اتخاذ الزرع من أعلى الحرف التي يتخذها الناس والمكاسب التي يشتغل بها العمال، ولذلك ضرب الله به المثل".²⁴

2/ العناية بالحيوان: إن الاعتناء القرآني بالحيوان جليّ، ولا أدل على ذلك من تسمية كثير من السور بأسماء الحيوانات، كالبقرة والأنعام والفيل، وقد وجه الله عباده في آيات عديدة لرعاية الجنس الحيواني في جوانبه المختلفة مثل جهة إنتاجه أو استهلاكه، ورغب بالسعي في ضمان وجوده وصيانتة من الإبادة، فجاءت مثلاً آية: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} (هود:40) للإشارة إلى رعي النسل حتى لا ينقرض، ويدخل فيه كل الحيوانات، قال الرازي: "من كل زوجين اثنين؛ يدخل فيه كل الحيوانات"²⁵، كما أشار سبحانه وتعالى في قوله: {وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا} (المائدة:96) إلى عدم إضعاف الثروة بسبب وفرة الحجيج، فلو أُتيح لهم الصيد لانقرضت كثير من الحيوانات، وفيه إشارة لفكرة المحميات البيئية.

وجاءت آيتا: {وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ} (هود:64) وقوله: {لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ} (الشعراء:155) إلى ضرورة إعطاء الحيوان حقه من المأكل والمشرب والشراكة معه بالاقتراس العادل، حتى وإن ظهر أنه يضيق الشرب والطعام على القوم، وهذا لعله سبب إقدام ثمود على عقرها، ولذا لما أورد الله قصة بنتي شعيب في معرض الامتنان عليهما، ذكر من خبرهما أنهما {قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ}

(القصص:23)، وفي ذلك مراعاة حق الأنعام حتى يؤمن عيشها وتسد حاجاتها، وفي قوله: **{كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ}** (طه:54) تحقيق لهذا المقصد.

وفي قوله تعالى: **{وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ}** (التكوير:5) إشارة إلى أن طبيعة الحيوانات الوحشية كالسباع والتماسيح وغيرها أنها نافرة من الإنسان وغير خاضعة له، وعليه فتمام رعايتها إنما هو بإعطائها حريتها وعدم إخضاعها في سجون وأقفاص كبيرة، حتى ولو بذل لها طعامها ومشربها وأُتيح لها نسلها، لأن حشرها تعد على حقها المكفول.

3/ العناية بالحشرة: إن حديث القرآن عن الحشرات لا يقل حديثاً عن الحيوانات، وقد بين بعضاً من أحوالها ونظام عيشها، ويتأمل خبرها إلفات عجيبة لوجوب حراستها، فقله تعالى: **{حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}** (النمل:18) ملمح إلى أن النملة عرفت بإلهام الله لها مكانتها في نظر الأنبياء والمؤمنين، فأمرت سكان الحجرات بالدخول وطمأنتهم إلى عدل نبي الله سليمان -عليه السلام-، وذلك أنه لن يصيبهم بمكروه أو أذى بشعوره، وإنما قد يأتي التحطيم من قبله من حيث لا يشعر هو وجنده، وعليه فهداية الآية ترشد إلى التأسي بالأنبياء والصالحين في رفقهم بالحشرات الهادئة، والإحسان إليها والرفقة بها.

4/ العناية بالماء: يعتبر عنصر الماء من أتمن المكونات؛ لتكوينه الابتدائية في السلسلة البيئية، وقد أجاد القرآن في تتبع منافعه وسرد أسرارها في الدنيا والآخرة، وكذا ذكر أنواعه وأوصافه مثل الماء المهيمن والصدید والحميم والمبارك والغدق والفرات والثجاج والأجاج والداقق، وفي قوله: **{وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}** (الأنبياء:30) دعوة صريحة وصارمة للتكفل بتوازنه، والبعد عن كل ما يعيق عطاءه الغيثي الحيائي، لأن العبث بخواصه عرضة لفساده النوعي وهي المتمثلة في التلوث الطبيعي أو البيولوجي أو الكيميائي كما قال تعالى عن فساد مياه البحر: **{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ}** (الروم:41) أو لاضطرابه الكمي في نزوله وخروجه كما قال تعالى: **{وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ}** (المؤمنون:18)، كإشارة إلى ثلاث كوارث رئيسية قد ترافق دورته، وهي الفيضان، والطوفان، والجفاف بغوره أو الخلل في توزيعه.

5/ العناية بالأرض: حرص القرآن في آياته على دوام رعاية الأرض وازدهارها، كيف لا وهي البيئة الحاضنة، فعلى بساطها تجري معظم الحوادث الطبيعية، وتحيا مختلف النباتات والحيوانات والحشرات، ولكثرة دوران مصطلحها في القرآن لأزيد من أربعمئة مرة اعتبرت أدق تعبيراً من مصطلح البيئة، خاصة وهي تأتي في مقابلة السماء بمعنى الكوكب فتشمل البحر والبر وما هُيئَ فيهما وتولد منهما والأرضون السبع، كما جاء قوله: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}** (البقرة:29).

ومن بين الأمثلة التي تستحضر في مقام رعيها وجوديا، إحياء الأرض الموات بالغرس والسقي والمعاهدة لمكافحة التصحر الذي أضرب بدهورها وفقدان الحياة بمناطق عديدة منها، وقد وقعت الإشارة إلى

ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ، لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (يس:33، 34، 35) حيث دعا عباده إلى العمل بالأيدي والشكر الذي من مقتضياته العمل أيضا وذلك لخدمة الأرض والسعي في إحيائها حتى وإن كانت مواتا، وفي تفسيرها قال الزمخشري: "ليأكلوا مما خلقه الله من الثمر ومن ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ من الغرس والسقي والآبار، وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه وإبان أكله، يعنى أن الثمر في نفسه فعل الله وخلق، وفيه آثار من كد بنى آدم"²⁶.

وفي قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا، أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ (المرسلات:25، 26) وقوله: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ (المائدة:31) حفظ آخر من مقومات حفظ الأرض، حيث تشير الآية إلى ضم الأرض للموتى بدفنهم في قبورها، وهي من الوسائل الراشدة التي دعمت مؤخرا في الأبحاث العلمية²⁷، حيث أشاد علماء أمريكيون بطريقة الدفن الإسلامي مؤكدين أن من شأنه إنقاذ البيئة المحيطة به من أخطار كثيرة، ولا فتين إلى أن استخدام التوابيت أو حرق الجثامين تسببان أضرارا بيئية خطيرة، لأن دفن الموتى داخل توابيت يلوث التربة بالمواد الكيميائية المستخدمة في صناعة تلك التوابيت، خاصة أن متبعي تلك الطريقة يعالجون الجثة قبل دفنها بمادة الفورمالين السامة لإبطاء تحللها وهو ما يضاعف أخطار دخول تلك المواد الخطرة إلى التربة، أما حرق الجثة ونثر رمادها في البيئة المحيطة فيؤدي إلى إطلاق المعادن الثقيلة والغازات السامة وغيرها من المواد المضرة بالبيئة.

6/ العناية بالسماء: تقسم السماء في حديث القرآن إلى السماء المعروفة، والسحاب، والمطر، وسقف البيت، وسقف الجنة والنار²⁸، وبحكم تكرر ورودها لأكثر من ثلاثمائة مرة فإن ذلك مدعاة لتقليب النظر فيها، ولا شك أن معظم معانيها إنما هي بالمعنى الأول، فتشمل السماوات السبع وما معها من نجوم وشمس وقمر وكواكب مجتمعة على شكل مجرات وعوالم كونية أخرى.

ومما ظهر لي بعد بحث متواضع أنه لا توجد دعوة صريحة لإصلاح السماء وعدم إفسادها كما جاء ذلك في آيات عديدة عن الأرض، وقد أرجعت ذلك إلى إعجاز خفي، وذلك أن أي فساد يصيب السماء بجميع مكوناتها وطبقاتها ومحتوياتها إنما مصدره الأرض، وبالتحديد عنصر الإنسان الذي يحيا فوق الأرض، ومنه نستنتج أن الآيات الداعية لحفظ الأرض إنما تدل بمفهومها الشامل على السماء، فتغير المناخ أو اضمحلال طبقة الأوزون أو التلوث الحراري أو الضوئي أو الإشعاعي أو غيرهم من الملوثات المعروفة عند علماء البيئة، إنما منبعها الأرض ببرها وبحرها، وعليه فالآيات تحمّل النشاط البشري مسؤولية أشق، إذ توجب عليه أولا اتخاذ التدابير اللازمة لحفظ الأرض ونقاوتها، حتى لا تنعكس آثارها المهلكة على السماء ثانيا لترجع على الأرض مرة ثالثة فتؤثر على صحة الإنسان البدنية والنفسية وحياة النبات والحيوان ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود:117).

وحتى ما سُخِّرَ بين السماء والأرض، وهو جو السماء الحاوي للهواء والرياح والسحب والأمطار والرعود والشهب إنما هو داخل في عموم الأرض؛ وما تعفن الهواء بالآزمات البيولوجية أو امتلاؤه

بالضجيج أو تشكل الأمطار الحمضية إلا نتيجة إفساد أرضي مبعثه يد الإنسان، وفي جائحة فيروس كوفيد 19 خير مثال.

7/ العناية بالمعدن: جاء في القرآن التنصيص على بعض المعادن، وهي الذهب والفضة والنحاس والحديد واللؤلؤ والياقوت، وحيث إن هذه الأجسام المركبة غير نامية، فإن ضرورة المحافظة عليها أشد تأكيداً، وفي قوله الحق تبارك وتعالى: { وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ } (الحديد:25) تعريض إلى الانتفاع بهذا الفلز المنزل غير النامي، وترغيب في السعي إلى استغلاله بأقصى قدر ممكن، ولا عجب أن سميت السورة باسمه كإحياء إلى قيمته، خاصة وهو يدخل في أساس كل الصناعات. وتتمام الاستفادة منه إنما تكون باستعماله فيما ينفع بعيداً عن حدود الإضاعة، وتثمينه مرة بعد أخرى، وهو ما يعرف بإعادة التدوير، حيث يسترد من جديد بعد استفاد المنفعة منه ليدخل في مركبات جديدة، وفي ذلك تقليص من تفاقم النفايات المضرّة بالبيئة وجمالها، ومحافظة على المقدرة الخام، وتحقيق لمبدأ التوازن البيئي.

المطلب الثاني: رعاية البيئة في القرآن من جهة الحفظ العمدي

بمقابل الرعاية القرآنية للبيئة من جهة الأمر بحفظها، والدعوة لتتميتها، توجد آيات أخرى ترهّب من إفسادها، وتذّر كل من هدّد قوامها وأضر محيطها، سواء كان بإخلال واقع أو متوقع، ويمكن تقريبها في صورتين متميزتين، الأولى قبل الأزمة وهي المتمثلة في التنصيص على جملة المنهيات المحذرة، والثانية بعد الأزمة والمتمثلة في ذكر الآثار السلبية المترتبة على الإساءة إليها.

الفرع الأول: المنهيات المحذرة من الإضرار بالبيئة

وهي الزواجر الناهية والمجرمة لأي أزمة متوقعة في المال، وبالرغم من أن الأمر بالشيء نهى عن ضده، إذ تتطوي القيم الوهبية والكسبية المتقدمة على التحذير من أي فساد بيئي، إلا أن القرآن قد أولى عناية فائقة للمحيط الإنساني تصريحاً وتلميحاً حتى يكتمل الوعي البيئي في مخيلة المخاطبين، وينضج من التصور التام وعي سليم وثقافة ناجزة، وفي ما يلي مقارنة بعضها؛ إذ تتبعها جميعاً مما يطول:

1/ النهي عن الإفساد: إن أكثر تعبير قرآني ورد في النهي عن الإضرار بالبيئة والمساس بمقوماتها هو؛ النهي عن الإفساد في الأرض، منه قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} (البقرة:11)، وقوله: { وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } (البقرة:60)، وقوله: { وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } (المائدة:64)، وهو شامل لأي إفساد.

ولذا قال أبو حيان في تفسير قوله تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} (الأعراف:56) متعقباً على بعض المفسرين الذين يرون خصوصية الآية في بعض الأنواع: "وما روي عن المفسرين من تعيين نوع الإفساد والإصلاح ينبغي أن يحمل ذلك على التمثيل، إذ ادعاء تخصيص شيء من ذلك لا دليل عليه"²⁹، ثم ذكر بعض الأمثلة كتغيير الماء المعين وقطع الشجر والثمر ضراراً.

2/ النهي عن الإسراف: من أكبر تحديات البيئة هو الإسراف في استخدام عناصرها أو في طريقة معالجتها، ولذا حذر القرآن من الإسراف في آيات عديدة، وأفصح عن الوقوع في أكثر ما يوقع فيه، وهو الإسراف الغذائي والمائي؛ وفيه يقول تعالى: { وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } (الأعراف:31)، ولا عجب حيث ربط الله بين الإسراف والإفساد، حيث قال تعالى في سورة الشعراء: { وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ، الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ } (151، 152).

إن الإجهاد في التعامل مع عناصر البيئة يؤدي إلى استنزافها وإتلافها، وهدرها وفقدانها، وهو من الإذيات اللاحقة للأجيال القادمة، ولذا فضمامها يكون بالقصد والوسطية، ومراعاة التوازن الدقيق، من غير إسراف أو تبذير { وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا، إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا } (الإسراء:26، 27).

ويدخل في الإسراف العبث بمقدرات البيئة واللهو بمرافقها من غير حاجة داعية؛ إشباعا لتطلعات النفس ورونق الحضارة الزائفة، كالاصطياد الترفيهي للأنواع النادرة، وإضاعة المعادن الخام في البناءات التنافسية، كما قال تعالى: { وَتَنْحَثُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ، الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ } (الشعراء: 149، 150، 151، 152).

3/ النهي عن التبديل والتحريف: لا شك أن كل ما هياه الله لنا وسخره في محيطنا هو من نعمته، إذ يقول تعالى: { أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً } (لقمان:20)، ومن باب المحافظة على النعمة هو عدم تبديل سنتها الكونية وتغيير مجراها، وإلى هذا يشير القرآن في قوله تعالى: { وَلَا ضِلَّيْنَهُمْ وَلَا مَنِّينَهُمْ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيُبْتِئَنَّ أَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيُعَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ } (النساء:119).

ومن أمثلة التغيير؛ التدخل في تغذية النبات والحيوان بالمواد الكيماوية، وتطبيق الهندسة الوراثية لخلق سلالات جديدة، والاعتداء على التربة في رشها بالأسمدة السامة، وتحويل الهواء إلى جو خانق بالغازات النابعة من المصانع الملوثة، واستمطار السحب بالكيماويات.

ولحماية البيئة من الانحراف يجب ضبط التصرفات غير الأخلاقية وترشيد الاستخدام المفرط بغية الإنتاج السريع، والسير في الاتجاه الطبيعي الخالص.

4/ النهي عن طغيان الميزان وإخساره: يعد الإفراط والتفريط من أكبر مضرات البيئة ومجربات تدهورها، وقد ورد النهي عن ذلك في قوله تعالى من سورة الرحمن: { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ، وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ } (7، 8، 9، 10).

ويفهم من الميزان ميزان كل شيء بما فيه التوازن البيئي، فأى إنقاص أو زيادة عن الأصل الطبيعي يعتبر إخلالا منهيا عنه، وما مناسبة الآيتين بين آيتي السماء والأرض إلا إلفات قصدي لقيمتها في قانون الموازين الثابتة.

5/ النهي عن الاعتداء: من النواهي القرآنية في مجال حماية البيئة النهي عن الاعتداء مطلقاً، سواء كان ذلك بسبب مباشر أو غير مباشر، قال تعالى: { وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } (المائدة: 87)، وقال عن ناقة صالح عليه السلام: { وَلَا تَمْسُوْهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ } (الشعراء: 156).

ويمكن التمثيل على ذلك بالاعتداءات الحربية، كقتل البهائم وإحراق الغابات وإطلاق الأوبئة وإشعال النار في آبار النفط والغاز، وأشدها جرماً تفجير القنابل النووية بأسلحة الدمار الشامل، ومهما كان القتال شديداً مستعراً فإن احترام سنن الكون ضرورة أكيدة ولازمة.

الفرع الثاني: الآثار المترتبة على الإساءة إلى البيئة

وهي الآفات والعقوبات القرآنية المترتبة عن أي أزمة بيئية واقعة في الحال، وقد رأيت إدخالها في باب الحفظ العدمي؛ لأن ترتيب الجزاء على عواقب الاختلال وانعكاس آثاره السلبية تهديدات من شأنها أن تحفز الناس لصون البيئة وحمايتها من الفساد والهلاك، قال تعالى: { لِنُذِقَهُمُ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } (الروم: 41)، وقال: { وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } (السجدة: 21) كما أنها تعتبر من مسالك النجاة وسبل الخلاص، ويمكن تصنيفها إلى:

1/ آثار بيئية: وهي البلايا والآفات النازلة على البيئة بما فيها من حيوان ونبات وجماد وأرض وسماء وهواء وأفلاك، نذكر منها:

أ- ظهور الفساد: أي تفشي كثرة المضار وقلة المنافع وبروزها للعيان بعد أن كان خافطة ضامرة لا تكاد ترى أو يشعر بها، قال تعالى: { ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ } (الروم: 41)، أي بسبب خطايا الإنسان وظلمه تجلت مظاهر الاعوجاج في البر والبحر.

قال البغوي مفسراً: "يعني قحط المطر، وقلة النبات"³⁰، أي ومنها ذلك على سبيل التمثيل، لأن الآية تدل بمفهومها على عموم المحن ولا تحمل تخصيصاً لنوع معين، بل كل فساد في مواقع البر والبحر يدخل في دلالتها، كتأذي الحيوانات بجميع أصنافها والجمادات بسائر أنواعها.

ب- هلاك الحرث والنسل: من البلايا التي تخص محيط البشر، هلاك الحرث والنسل، قال تعالى: { وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِنُفْسِهِ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ } (البقرة: 205)، ويعتبر الإهلاك اللاحق للنبات ونسل الحيوان من الأزمات المعقدة الناتجة عن فساد الأرض، كما جاء عن مجاهد في قوله: "إذا تولى سعى في الأرض بالعدوان والظلم، فيحبس الله بذلك القطر، فيهلك الحرث والنسل"³¹.

وإذا هلك الحرث والنسل استحال العيش على الأرض وتعذر البقاء على ظهرها؛ إذ بانقطاعهما تنقطع وسائل الحياة من غذاء وهواء، وفي هذا يقول الرازي بعد أن مال إلى أنه لا فساد أعظم منه: "فإن قوله: ويهلك الحرث والنسل من الألفاظ الفصيحة جداً الدالة مع اختصارها على المبالغة الكثيرة"³².

ج- إحلال الكوارث: إن تعدي الحدود المشروعة بالظلم والطغيان والكفر يجر إلى استحقاق نكبات فادحة، وبلايا جائحة، تؤدي إلى خراب كل النظم الطبيعية، ودمار مختلف القطاعات الحياتية، وما خلفته الزلازل والفيضانات والأعاصير من خسائر بيئية مهولة إلا خير شاهد.

وقد ضرب الله لنا المثل عن مصير كثير من الأمم الكافرة كيف حل بها العذاب الدنيوي، والذي نتج عنه ولحقه فساد أراضيها وجناتها ومياها وحيواناتها وما خلفته من كنوز وأملاك، قال تعالى: {إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} (العنكبوت:34) وقال: {وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} (الأعراف:137) وقال: {فَكَأَيُّ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُ مُعْطَلَةٌ وَقَصِرَ مَشِيدُهَا} (الحج:45) وقال: {وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ} (الحاقة:6) وقال: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} (الرعد:13) وقال: {أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا} (الإسراء:68) وقال: {فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِیْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ} (سبا:16) وقال: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} (العنكبوت:14) وقال: {فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ، فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ} (القلم: 19، 20)، وغيرها كثير.

2/ آثار إنسانية: وهي الانعكاسات الخاصة على الإنسان جراء استخفافه بمقوماتها وتلاعبه بقوانينها، منها عقوبات دنيوية عاجلة بما فيها الحدود، ومنها عقوبات أخروية آجلة، وأراها تتمثل فيما يلي:

أ- الأضرار اللاحقة للإنسان: وهي المصائب النازلة على الإنسان جراء الخلل البيئي؛ كما جاء في قوله تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمَلُوا} (الروم:41)، وقوله تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} (النحل:112)، ويلحق بها كل هلاك أو دمار رباني نتيجة الكفر.

ويندرج فيها أيضا تعطل المصالح الدنيوية والدينية، فيمنع الناس من إقامة الفرائض كالصلاة والصوم والحج، وتعاق الحركة الاقتصادية والسياسية والثقافية والسياحية، وتجهض كل المقاربات الاجتماعية، ويدخل الناس في خراب وجوع وخوف، ويعم ذلك جميع الطبقات والمدن والفئات العمرية، ولذا كان الإمام المراغي دقيقا حين قال في تفسير قوله تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} (الأنفال:25) "وما مثل ذلك إلا مثل الأوبئة التي تحدث في الشعب بكثرة الأقدار وإهمال مراعاة القواعد الصحية لا يعدى بها من تلبس بها فحسب، بل تنتشر العدوى في الشعب جميعه"³³.

ب- الحدود المفروضة على المفسدين: أي إقامة الحدود الشرعية والتعزيرات على المفسدين والمعتدين تأديبا لهم وزجرا لغيرهم جزاء إفسادهم البيئي، وقد وقعت الإشارة الصريحة لذلك في قوله تعالى: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُغْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (المائدة:33).

وعليه فعلاج القرآن في الآلية يوجهنا لتحقيق الحدود القاسية والشديدة حماية للبيئة وحفظا لها من الإرباك، ومتى تحقق مبدأ العدل على جميع الدول قويا وضعيفها، غنيها وفقيرها، ساد الأمن وارتفع التلوث.

على أن الجزاءات إنما ترجع لتقدير القضاء على حسب درجة الخطورة والتعدي؛ فمنها المضر، ومنها القاتل، ومنها المهلك للحرث والنسل³⁴، وقد بيّن الله تعالى أن خطورة القتل أو الإفساد في الأرض ضررها متعدّد، وأذاها شامل، قال تعالى: { مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا } (المائدة:32).

ج- العقوبات الأخروية: بعد كل ما ذكرناه من تهديدات وأضرار دنيوية تصيب الإنسان ومحيطه علّها تكون محدّرات تحمي البيئة الطبيعية، نختم بآخر ما يتبع المفسد في حياته الأخرى، تنكيرا بجرمه، وترهيبا من التطاول على تراث الأجيال.

جاء في محكم التنزيل عن عقوبة المغيرين لخلق الله: { وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } (البقرة:211)، وجاء عن المفسدين: { إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } (المائدة:33)، وورد في حق المعتدين على المحميات الحيوانية { وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ } (المائدة:95).

الخاتمة

في ختام البحث، وبعد رحلة قصيرة في رحاب الآيات الكونية، أود أن أشير إلى أهم النتائج المتوصل إليها، وهي كالآتي:

1- الحضور القوي للحديث البيئي في القرآن الكريم، تصريحاً وتلميحاً، تنمية وحماية، وهي تتطلب التتبع والاستخراج، وبالرغم من كثرة البحث في هذا الشأن إلا أن مادته لم تنزل خاماً.

2- التقارب المفهومي بين الدلالة اللغوية والقرآنية والعلمية لمصطلح البيئة، والذي يعني موضع القرار، غير أن الدلالة العلمية توسعت لتشمل المكان وما يحيط به من ظروف طبيعية، كما تعددت أقسامها وتفرعت عناصرها.

3- تمثّلت صورة القرآن الكريم الداعية للمحافظة على البيئة من خلال سبع قيم كبرى؛ وهي: التسخير، الأمانة، الاستخلاف، الاستعمار، الإتقان والالتزان والحسبان، التكريم العقلي، عبادة البيئة وشعورها.

4- تنحصر معظم العناصر البيئية التي دعا القرآن الكريم للعناية بها في: النبات، والحيوان، والحشرة، والماء، والأرض، والسماء، والمعدن.

5- حذر القرآن الكريم من الإضرار بالبيئة في عديد من الآيات، ورتّب على التهاون في حقّها آثارا ترجع عليها وعلى الإنسان بالخراب والأذى الدنيوي والأخروي.

وأخيرا؛ فإني أرفع توصيات لمعشر الباحثين باقتحام مجال الآيات القرآنية الكونية، ومحاولة تبليغ مفاهيمها المعجزة بمختلف الآليات الحديثة، ومحاولة الاكتشاف الأولي لتكون البيّنات سبقيّة وليست تدليلية.

الهوامش

- 1 -ابن فارس أحمد الرازي، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1979م، 312/1 باختصار.
- 2 -أخرجه البخاري كتاب "الصوم"، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة: (1/ 456)، ومسلم كتاب "النكاح": (1/ 630)، رقم: (1400)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
- 3 -المطرزي ناصر الدين الخوارزمي، المغرب، دار الكتاب العربي، د.ط، د.ت، ص52.
- 4 -ابن منظور محمد الإفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، 38/1.
- 5 -الجوهري إسماعيل الفارابي، الصحاح، تحقيق: أحمد عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1987م، 37/1.
- 6-ابن سيده علي المersi، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هندائي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000م، 562/10.
- 7 -ابن سيده علي المersi، المخصص، تحقيق: خليل جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1996م، 502/1، أحمد الدمشقي، اللطائف في اللغة، دار الفضيلة، القاهرة، د.ت. ص291.
- 8 -مجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن الكريم، مصر، 1989م، ص169.
- 9 -يوسف كافي، اقتصاديات البيئة والعولمة، دار رسلان، سوريا، ط1، 2013م، ص24.
- 10 -محمد مersi، الإسلام والبيئة، أكاديمية نايف، الرياض، ط1، 1999م، ص19.
- 11 -رشيد الحمد ومحمد صباريني، البيئة ومشكلاتها، عالم المعرفة، الكويت، 1979م، ص24.
- 12 -زين الدين عبد المقصود، التخطيط البيئي، الجمعية الجغرافية، الكويت، 1981م، ص9.
- 13 -أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط1، 2008م، 258/1، باختصار.
- 14 -أحمد مختار، معجم الصواب اللغوي، عالم الكتب، ط1، 2008م، 137/1.
- 15 -مجمع اللغة، المعجم الوسيط، دار الدعوة، د.ط، د.ت، 75/1.
- 16- محمد المبارك، رعاية البيئة من خلال التقعيد الأصولي والفقهية، مجلة الجمعية الفقهية السعودية، العدد السابع عشر، شوال/محرم، 1434-1435هـ، ص422 وما بعدها.
- 17 -يوسف كافي، اقتصاديات البيئة والعولمة، المصدر السابق، ص23.
- 18- محمد مersi، الإسلام والبيئة، المصدر السابق، ص21، طلال المومني، حماية البيئة من منظور إسلامي، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، المجلد الثاني، العدد الثاني، 2006م، ص191.
- 19 -يوسف القرضاوي، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، دار الشروق، مصر، ط1، 2001م، ص8.
- 20 -أبو هلال العسكري الحسن، الفروق اللغوية، تحقيق: محمد سليم، دار العلم والثقافة، مصر، د.ت، 205/1، 207.
- 21 -الراغب الأصفهاني الحسين، الاعتقادات، تحقيق: شمران العجلي، مؤسسة الأشرف، بيروت، ط1، 1988م، ص254.
- 22- فخر الدين محمد الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ، 73/13.

- 23 - ابن عطية عبد الحق الأندلسي، المحرر الوجيز، تحقيق: عبد السلام محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ، 347/4.
- 24 - القرطبي محمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964م، 305/3.
- 25 - فخر الدين محمد الرازي، التفسير الكبير، المصدر السابق، 348/17.
- 26 - جار الله الزمخشري محمود الخوارزمي، الكشاف، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ، 15/4.
- 27 - علماء أمريكيون: طريقة الدفن الإسلامية هي الأفضل على الإطلاق، <https://www.elbilad.net/article/detail?id=76719>
- 28 - ابن الجوزي عبد الرحمن القرشي، نزهة الأعين النواظر، تحقيق: محمد الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1984م، ص358 بتصرف.
- 29 - أبو حيان محمد الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق: صدقي جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ، 70/5.
- 30 - البغوي الحسين الفراء، معالم التنزيل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1420هـ، 580/3.
- 31 - الطبري محمد الأملي، جامع البيان، تحقيق: عبد الله التركي، دار هجر، مصر، ط1، 2001م، 583/3.
- 32 - فخر الدين محمد الرازي، التفسير الكبير، المصدر السابق، 347/5.
- 33 - المراغي محمد المصري، تفسير المراغي، مصطفى البابي الحلبي، ط1، 1946م، 98/10.
- 34 - ولمزيد توسع ينظر: محمد المدني بوساق، الجزاءات الجنائية لحماية البيئة في الشريعة والنظم المعاصرة، جامعة نايف، الرياض، المجلد 16، العدد 31، محرم، 1422هـ.